

فلسفة التربية

كأبراهام فريدمان العرب

للاستاذ محمد حسن ظاظا

— ٦ —

تطبيقات الديمقراطية على التربية والثقافة المثلى في جماعة ديمقراطية

« إن الإنسانية التي تخلصت من الرق تستطيع التخلص من الحرب »
« سير فردريك بلوك »
« يستطيع التاريخ أن يغير عقل الأمة أو يصلحه تبعاً لطريقة تدرسه »
« موسار »

يجب أن تكون « ديمقراطية » معه هي أيضاً ! يجب أن
تشاركه في وضع « المقرر » ، ويجب أن تطلعه على الكتب المدرسية ،
ويجب أن تأخذ رأيه في أنسب طرق التدريس . لأنه التنفيذ
الروحي والمادى للخطط الموضوعية ، فإما يجوز أن تفرض عليه هذه
الخطط فرضاً ، ولأنه المتصل بالعقول الناشئة فهو أقدر من غيره
على فهم استمداها ، ولأنه المجرب لهذا النهج أو ذاك فيجب أن
يكون لرأيه التقدير الواجب ؛ أما أن تبث إليه البرامج
ويساق سوقاً إلى تدريسها ، وأن يُحمل النشء على الرجوع
إلى كتب يراها هو غير متمشية وما انتهى إليه من رأى ، وأن
يقترح ويكتب ، ويصرخ ويستغيث دون ما جدوى ، كأنما هو في
وادي والدولة في واد آخر — فذلك كما ترى هدم لركن من أركان
التربية جدير وخطير ، وإن غفالت لتجارب ناطقة لا سبيل إلى التقدم
السريع إلا بالاستفادة منها^(١)

٢ — في المتعلم

وأما هذا فما يجوز أن يكون شخصية سلبية تستمع إلى
الدرس دون مافكر ، وتحفظه وتميه على أساس « الطريقة الصماء »
وتذهب إلى المدرسة كارهة وتخرج منها مسرورة ، فإذا كانت
الحياة المستقلة طار الملم وانعجى ، وحل الكسل والفراغ الآثم
والاستمتاع الحقيق ، هذا إلى الفضل في معالجة أهون مسائل
الحياة ، وإلى الكبرياء والترفع عن « السوق » والأعمال الحرة !
أجل ! ... ما يجوز شيء من هذا ... وإنما يجب أن نسير
معه على أساس البحوث النفسية المصحيحة التي تقول مثلاً إن
« العقل » إذا مر في الحياة بمشكل راح يحده ويفكر في وسائل
حله ، فيفترض الفروض ويحققها ويتحجها ؛ أو أن الشيء لا يثير
الاهتمام ولا يعلق بالذاكرة إلا إذا كان شائفاً ومتصلاً بالحياة
انصلاً وثيقاً ... إلى آخر هذه النظريات التي نعرفها ولا نعرف
السبيل إلى تحقيقها ... وإذن فلتكن موضوعات الدراسة
على هيئة مشاكل يقف الطفل حيالها « موجياً » أي محددات
ومفترضات ومحققات ومجرباً ، ولتكن بقدر الإمكان متصلة بالحياة
حوله حتى يستسيغها في مراحلها الأولى ، ويقبل عليها بلذة

عرفت في المقال السابق كيف يؤمن « جون ديوى » وغيره
بالديمقراطية كمحور « للحياة المثلى » ، وكيف يريد أن يتخذ من
التربية وسيلة فعالة لتحقيق تلك « الحياة » ؛ وسترى في هذا
المقال ما تتطلبه الديمقراطية في المعلمين والتعلمين والمدارس والمواد
وطرق التدريس جميعاً

١ — في المعلم

وأنت تعرف من هو المعلم . هو الذي قال فيه شوقي إنه كاد
أن يكون رسولاً ، وأنه ذلك الذي يبني أنفساً وعقولاً ؛
ولقد حاول « فروبل » أن يبرر عمله « العظيم » فقال : « إنه
جزء من الكون ، فعمله إذن جزء محدود في الكون ، ومركزه
يلتمس تماماً ومركز الكون ، ولذلك عند ما يفرض قوانينه على
الطفل لا يفعل أكثر من إخضاعه لقوانين الوجود الخالدة » ،
وقال : « تتعارض القوى في الطبيعة لتتلاشى وينشأ منها قوة
جديدة . وكذلك الأمر بين العلم والتعلم » ...^(١) هذا المعلم
يجب أن يكون « ديمقراطياً » أولاً وقبل كل شيء ، ديمقراطياً
في خلقه الخاص ، وديمقراطياً في طريقة احتكاكه بالتلاميذ
حتى لا يجبر على شخصياتهم . زد على ذلك أن « الدولة »

(١) ونرى من حسن الحظ أن الوزارة عندما بدأت تطبيق هذه القواعد
نظيماً محموداً بما تطلبه من تقارير واقتراحات

(١) أنظر فصل الأساس التصوري للتربية من كتاب : J. Adams,
Evolution of The Eod. Theory

وتعليم للحياة بالحياة ، وعمل منتج ذو غاية ، ودرس لمواد متصلة لا منفصلة انفصالاً لا مبرر له ، واحترام للعمل والعاملين ، واكتساب للنظرة العلمية التجريبية الصحيحة ، علم مقرون بعمل ، ونى إلى جانب فقير ، وعمل طامح مستبشر ينزوي إلى شئ أكثر من ورقة ممهورة بخاتم الوزير !

٤ - في الثماني

ويبقى بعد ذلك أن تقرر روح الثقافة المثلى في الجماعة الديمقراطية . وحسبك أن تعلم أن هذه الثقافة لا تفرق بين النظر والعمل تفرقاً كبيراً ، وتنتظر « للتغير » كقانون عام يتطلب المرونة المطلقة والتجديد السريع ، ولا تأخذ بنظر الطريقة العلمية التي لا تلامس فيها ولا خزعات ؛ ولا تفرق بين مسلم ومسيحي ويهودى خشية أن تلوث تاريخ العالم بالدماء كما قد تلوث طوال الماضي الأنيم . الدين عندها لله والجميع لديها إخوان . ثم هي لا تستعبد الفكر قط ، ولا تفرس فيه الأفكار الاجتماعية أو السياسية الخاطئة بالأيحاء الآثم . العقل عندها مقدس فأي يجوز أن تشوهه ، ومثلها الأعلى في قيمة الدراسات هو ما تقدمه من خير يكمل الفرد والجنس^(١) ، ومذهبها التوازن بين الجسد والقلب والعقل حتى لا يؤدي الأمر إلى وحشية رائئة من جانب أحد أركان هذا الثلاث ضد الركنين الآخرين^(٢) وغايتها خلق ذلك الرجل المثقف الثابت في تتبع ما يريد ، المستعد لتعديل خطته إذا لزم الأمر ، المتفتح العقل لكل ما تقدمه العلوم والفنون ، النابذ للأحكام التقليدية متى ما اقتنع بخطئها ، المرحب بالأفكار الجديدة ، ولكن بعد نقدها وتمحيصها ، المتقدم للمساعدة كما استطاع ، والمقنع المجتمع بأهليته للثقة والاحترام . ذلك الرجل الذي لا يسيء إنساناً بقصد أو بغير قصد ، والذي يترك ما لا يعرف لأنه لا يقوى على معرفته ، والذي هو أبداً مطمئن البال ومصدر راحة لنفسه ولغيره . ذلك الذي هو حكيم لسعة اطلاعه ، والذي لا يحكم إلا بعد تمحيص وروية^(٣) والذي يحسن مخاطبة الناس جميعاً برقة ولباقة وظرف ؛ والذي يعرف معنى ما يقول ويتكلم بصراحة ووضوح وجلاء ، ذلك الذي يعبر بفكره

وشغف ، وبذلك وبغيره تنتهي إلى جعل « التعليم » عملية للذيذة لا أهوال بها ولا مكاره ، وجعل « المعرفة » متعة سامية بريئة يقبل « التخرجون » على التزود منها أثناء فراغهم بدلاً من الجلوس في المقاهي وغير المقاهي مما تعرف ومالا تعرف يا قارئ العزيز ! ، هذا إلى خلق الشخصية الديمقراطية التي تتعاون مع غيرها في المسائل السيرة كما تعاونت بالأمس في موضوعات الدراسة ، والتي تستطيع أن تكافح حقاً في الحياة وتمتقر « الديوان » ونمضي إلى الكفاح بجراً وبأس وإقدام ...

٣ - في المدرسة

وأما المدرسة فهي كما تعلم البيئة التي تعدنا للحياة الخارجية ، ولذلك يجب أن يشملها التنوير ، وأن تنقلب انقلاباً خطيراً ؛ ومعنى هذا أن تصبح دار عمل وتجرب شائق للذيذة بمجهود كل حرية وتعاون واحترام ؛ ففيها يزرع التلاميذ الشجرة ويشاهدون نموها ويسجلونه قبل أن يقرؤا عنه ، وفيها أدوات البناء والطهي ، والنزل والنسج ، وأشغال الخشب والآلة وما أشبه ؛ ويقف المدرس هنا ليضع الطفل أمام التجارب ويشمره بحاجته المساسة إليها^(١) . وبذلك تكون المدرسة كما يقول الأستاذ « يعقوب فام » : « صورة مصغرة للمجتمع البشري ، فهي إذن ليست وسيلة للجمعية البشرية . والفرق بينها وبين المجتمع هو أولاً أنها صورة مصغرة له ، وثانياً أنها يسهل التحكم في عواملها بخلاف المجتمع ، وثالثاً أنها غير معقدة ؛ فهي ليست إذن مكاناً للتعليم فقط ، وإنما هي للأطفال دنيا يعيشون فيها ويصرفون جهودهم ونشاطهم ثم يتعلمون ... » ومثل هذه المدرسة لا تشوق دون جهد ، ولا تجهد دون تشويق ، وإنما يتأتى ذلك عن ربط المادة نفسها بحياة التعلم^(٢) »

وعلى ذلك لا يكون الطفل فيها دائرة معارف متحركة فحسب وإنما يكون آخذاً بنصبة الوسائل والأدوات والصادر التي تساعد في البحث الذي يجريه بنفسه متعاوناً ومسترشداً . وهكذا يستطيع أن يعيش وينمو على أساس الديمقراطية والعلم ... ههنا إذن تعاون بحث ، وتنافس في الكيف لا في الكم ،

(1) Bode Amode Phelos. Of Ed.

(2) Ch. Mâson An essay Towarás a Thilos. of Ed.

(3) Ruédiger Principle of Ed unction

(١) أنظر كتاب Ch. Ridery. Classification des Caracters P 194

(٢) أنظر له كتاب التربية والأخلاق